مطامعهم من الثورة كانت أكبر من احتياجنا لها!

نادية الكوكباني

مرت ثلاثة أعوام وما زالت أذني تسمع دوي سيارات الإسعاف، وصور الشهداء والجرحى لا تفارق عيني، ورائحة الغاز المسيل للدموع عالقة بأنفي، وان حاولت بل اجتهدت أن أنسى كل ذلك فهناك عاهة مستديمة في يدي اليمني ستذكرني بأيام عصيبة عشتها لمدة عام وثلاثة أشهر في ثورة التغيير اليمنية.

في عصر ذلك اليوم كانت الخلافات في أوجها بين مكوّنات الثورة من الشباب المستقل والأحزاب. تناسى الجميع أننا في ساحة حريّة وتغيير ولا يجب تكميم الأفواه عن الكلام، أو منع التقاط الصور لخلافات طبيعية بين تلك المكوّنات، وليس معنى ذلك أنها تدعو لشق الصف الثوري كما أفادت اللجنة التنظيمية لساحة التغيير في صنعاء.

كانت القوى المدنية تناهض كل هذه التصرفات وتدعو لمدنية حقيقية أساسها حرية الرأي وقبول الآخر. وهذا ما لم ينل رضا الأحزاب السياسية والقوى التقليدية والدينية الموجودة في الساحة. تقدّم نحوي شاب مفتول العضلات من أحد الأحزاب الدينية يطلب مني إزالة ما صوّرته في تلك المشاجرة. ولما رفضت وطلبت تسليم ما في الكاميرا للجنة التنظيمية، لم يعجبه المقترح؛ وغافلني بقوّته وانتزع الكاميرا من بين يديّ، وكنت قد أحكمت ربطَها ليشلّ يديّ عن الحركة ويسبب لها تلك العاهة التي ألزمتني بارتداء رباط دائم للعمل بتلك اليد.

كان هذا مؤشراً خطيراً لي حول مسار الثورة التي خرجتُ من أجلها، والتي أراها تُعيد مفهوم النظام الذي خرجت لإسقاطه، وتحاول فرض قيود على التنوع الهائل الذي كان في الساحة مذهبياً وفكرياً. شعرت بإحباط شديد لكن هذا لم يكن معناه أن أعود للخلف، وأتقهقر وأكون من ضمن تلك الفئة الصامتة التي فضّلت العودة إلى منازلها والتزام الصمت، لأنها لم تكن راضية عن المسار السياسي والحزبي التي بدأت ثورة الشباب تقبل انضمامَه لها دون أن تستوعب أنه التفافه هو

وسرقة لثورتهم من أولئك المحنّكين في الشأن السياسي والحزبي.

بقينا في الساحة مجموعة من القوى المدنية المناهضة لكلّ الأعمال غير الثورية للمسئولين عن الساحة، رافضين وبقوّة دمج مسارِها الثوري بقبول انضمام القوى السياسية والأحزاب... تلقّوا دعواتِنا تلك باتّهامات كَثيرة أسهلها كان التخوين لفعلنا الثوري والعمالة لقوى الأمن القومي للنظام السابق حتى نرتدع عن مطالبتهم برفض انضمام الفاسدين للثورة ليتطهروا من أعمالهم المشينة في حقّ الشعب، وأيضا أن يكفوا عن ممارسات عنف ضد الثوّار كسجنِهم وضربِهم بحجّة أنهم قادة الصفّ الثوري وعلى الجميع السمع والطاعة.

تعبنا من تلك المعاناة ووصل بنا الأمر أن نعترف، ولو في أعماقِنا بأنّهم كانوا أقوى منا، وبأن غدرَهم كان أقوى من أمانتنا، وأن مطامعَهم من الثورة كانت أكبر من احتياجنا لها، لذلك استمروا في سرقتهم للثورة؛ واستمرينا في أمل غد سيفهم فيه القلّة ماذا فعلنا لننعم بوطن ننال فيه حقوقَنا ونمارس فيه حريتَنا.

أيام لن تنسى

أولى الفجائع كانت سقوط أول شهيد «عوض السريحي» الذي ودّع ابنته الوحيدة وخرج ليحمي الساحة من بلطجيّة النظام وهم يحاولون اختراقها ومحاولتهم منع الثوار من نصب خيامهم. حزِنت، ورغم ذلك استبشرت خيراً في أن استشهادَه ثمن للثورة. اعتقدت أن الأمر لَن يطول وأن سقوط بن علي ومبارك سيعلّم النظام اليمني أن الشعوب إذا خرجت للشارع لا تعود إلا منتصرة. لكن هذا لم يحدث في اليمن. سيطرتْ جماعةٌ دمويةٌ على رأس النظام، ونفثتْ في رأسِه سمومَها، وأقنعتْه باستخدام العنف والتحجج بالأهالي. وفي ذلك اليوم 18 مارس 2011 أطبقوا مخالبَهم على الساحة من كل جهة بجدران خرسانية لمحاصرة حركتهم واختاروا جماجم رواد التغيير من صحفيين ومصوّرين تماماً كما اختاروا قلوبَ الفقراء ليخترقَ رصاصُهم أحلامَهم في وطنٍ ينعمون بخيراته وثرواتِه. كاد قلبي أن يتوقّف ولم أستطع المكوث في المستشفى الميداني كثيراً واخترت توفير الأدوية الناقصة وجمع الملابس للمصابين. حتى غروب الشمس كان عددُ الشهداء قد تجاوز الخمسين، وصراخ الأمّهات كان قد تجاوز عنان السماء، وكأنه يشيعهم

بألم الفراق وحسرة الفقد. وفي منتصف الليل غامرتُ بالدخول إلى قلب المستشفى، مـررت بكل تلـك الجثث. رأيت أحد الشـباب مقرفصاً إلى جوار شـقيقِه الذي كان يبدو انه أصغر منه سنّاً، حزيناً وحائراُ مما حدث ولِما حدث...

لا يمكـن أن يكـون هذا هو مـا فعلَـه اليمنيّون باليمنيين كما سـرت الإشـاعة. هذه رصاصاتُ غدرٍ وخيانة ومصالح لرئيس عاثَ في الوطنِ فسـاداً، أفقر الشـعب، وسـطا علـى كلّ أحلامِه في عيشٍ كريم. أردت احتضـان كلّ من رموا بأحزانهم إلى جوار الشهداء، وراحوا يقرؤون القرآن حتى يأتي الصباح. أردت التمرّغَ في كلّ تلك الدمـاء التـي لم يتوقـف نزيفُها من أجسـادِهم الطاهرة حتى لا أنسـى تضحياتِهم من أجل اليمن. وفي صمت الأمّهات انزويت، كان لحزنِهن وكتم أصوات بكائِهن مرارةً فـي قلبي وغصّة فـي صوتي أفقدتني النطق لسـاعات. آثرتَ خلالَهـا العملَ بصمت مع الجرحى. نسـيتُ تلفوني الذي انتهت بطاريتُه، ونسـيت أطفالي، وطمأنتهم حتى وجـدت ابني أمامي. راحَ يحضُنني ويقبّلُني، وهو يـردّدُ الحمدُ لله انّك بخير يا أمي. عندها عاد لي الزمن واحتضنتُه ورحتُ أبكي، فمنذ الظهيرة لم أفعل.

كيف لهؤلاء القتلة أن يعودوا لمنازِلِهم الليلة؟ وكيف لهُم أن يبتسِموا في وجوه أبنائهـم وقـد حَرِموا أمّهات من أبنائهن؟ وكيف لهـم أن يخلِدوا إلى النوم إلى جوار زوجاتِهم وقد رَمّلوا نساءً كثر؟

ماذا بعد

لم تكن تلك بداية الدماء ولم يكونوا شهداء «جمعة الكرامة» هم آخر الشهداء، لكنهـا كانـت الدمـاء التي سـمحت للكثير مـن الانضمام للثـورة، ولم يفـرّق ذلك الانضمام بين الشـرفاء والفاسـدين. بيـن الأبرياء والقتلة وعندما تـمّ رفض أن تكون الثورة جسـر تطهير لأولئك المسـتغلين اعتُبِرْنا شاقين للصفّ الثوري وعملاءً للأمن القومي. تُهَم جاهزة كانت تصيب كل معارض لإعادة تدوير النظام في ساحة التغيير. أصبح للسـاحة زنزانة وسـجان وحماية ممن كانوا سبباً في قيام ثورة الشعب. أصبح لها مجلس وطني يشـمل كل منابع الفسـاد التي أفقرت الشـعب وقضت على آماله. وأصبحـت أنـا وغيري في قائمة سـوداء رفضت المشـاركة في ذلـك المجلس ولها الفخـر، وفضّلـتْ أن تلعن الظلام على أن تشـعل شـمعة في مجلس سـيحرق البلد

بأكملها. هكذا يتعامل الساسة بهدوء ويحوّلون الدفة لصالحهم. غاب عن أذهان الشباب انه تمّ استغلالُهم وسرقة ثورتهم واستمرّوا بنواياهم الطيّبة في الإيمان أن ثورتَهم في مسارِها الصحيح، وأنها تفتح صفحةً جديدةً لمشاركةِ كلّ أبناء الوطن دونَ إقصاء، حتى تفاجؤوا بتسوية سياسية للأحزاب اسمها «المبادرة الخليجية» لم تذكر شهدائهم، ولم تتناول تضحياتِهم ولم تقدّر حماسَهم في رؤية وطنِهم أجمل الأوطان. وتحوّل المسارُ الثوري النابض بالأمل إلى مسارٍ سياسيٍّ يرضي كافة الأطراف التي دمّرت البلد باستثناء الشعب؛ والأدهى أنه يوفّر لها الحصانة وعدم المساءلة وعلى رأسهم من رقص طويلا على رؤوس الأفاعي، الرئيس السابق علي عبد الله صالح.

أصبت بخيبة أمل شديدة، عُدْت أدراجي للمنزل أمارس مهنةَ التدريس الجامعي، وأتنفس الحياة من ممارسة هواية الكتابة التي أَعشقها، ومن خلال أبنائي التي حاولت أن أجد لهم وطناً حرّاً مدنيّاً يشعرون فيه بالعدل والمساواة والتمتع بخيراته وثرواته وفشلت، فهل يستطيعون هم؟